

رسالة الجامعة المصرية

حضرة صاحب المطالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

أني السادس من شهر ربيع الثاني سنة ١٩٤١ أني حضرة صاحب المطالي
وزير المعارف العمومية بصحة الاحتمالات. الجامعة المصرية هذه المحاضرة
الطبيعية التي تدرس رسالة الجامعة في الأمة المصرية وتوضح الألفاظ الخفية
التي ترمي اليها أو التي يربطها أو ترى اليها وتفسر على تحقيقها. وانه ليس بحجة
التباين الاجتهادية أن تفسر النص ككامل لهذا البحث انهم تعميها هذه
المحرر

سيدى مدير الجامعة

أشكر لكم ولزملائكم العلماء من رجال هذه الجامعة دعوتكم إياي للتحدث عن رسالة
الجامعة. ويسرنى أن يكون هذا الحديث فاتحة لسلسلة مطردة من الأحاديث والمحاضرات
المتصلة بالشؤون والمباحث الجمعية، تأتي هنا في هذا العام والأعوام التي تليه، ثم يكون
نواة لمعهد شبيه بالكلية في باريس وببغداد من المعهد في غير باريس من مدن
العالم الكبرى.

أيها السادة

أني سعادة مدير الجامعة محاضرة عن رسالة الجامعة بمدرج الطبيعة في كلية العلوم يوم
٢٩ ديسمبر الماضي. وفي هذه المحاضرة القيمة تناول الأستاذ الكبير أغراض الجامعة من
نواح مختلفة، فذكر أن الجامعة هي جماعة من العلماء أخلصوا للعلم فوقوا عليه من كتابهم
ووقفهم. يخدمونه كما يقف الزهبان أقسمهم على عبادة الله. وإلى جانب أولئك العلماء شأن
أدياء يخدمون العلم كما يخدمه أساتذتهم على السواء عن طريق التعاون من جانب الطائفة
والإرشاد من جانب الأساتذة، وأن الجامعة لذلك وحدة اجتماعية متضامنة الأفراد الذين
يؤلفونها من الأساتذة والطائفة والمدرسين، وأن من الخطأ الظن أن أغراض الجامعة تنحصر
في شيء واحد هو تحضير موظفين لإدارة الحكومة. وأن الجامعة القديمة التي أنشئت منذ
ثلاثين سنة إنما أنشئت لتؤلف بيئة مستقلة فيها يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل
المؤدية لكامل وجوده الخاص، على أساس من حرية التفكير والقد على وجه الاستقلال
لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال.

وقد ختم الأستاذ الكبير محاضراته القيمة بالإشارة الى أن من رسالة الجامعة أن تقوم بالإنجازات العلمية في العلوم والآداب التي تنفج عندنا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة في النظريات العلمية ، فتؤدى بذلك عن مصر واجبها من المشاركة في رقى العلوم والمعارف ، كما أن من رسالتها تربية شبيهة الأجيال المتعاقبة لتبني البلاد قاداتها في جميع مرافقها ، ومن رسالتها كذلك نشر الثقافة العامة والأدبية في جميع طبقات الامة ومساعدة التطور الاجتماعي بكل ما في وسعها من ضروب التجديد . والجامعة بذلك كله مصدر إشعاع يشع منه التضامن القومي . ففيها يشب التضامن ويؤتى كل ثمراته بعد أن يكون قد ولد في العائلة ونشأ في المدرسة .

هذا الغرض السريع لما احتوته محاضرة مدير الجامعة يدلكم أيها السادة على تشعب الاغراض التي تعمل الجامعة لها ، وعلى جسامه الرسالة التي تنهض بأعبائها . والواقع أن هذه الرسالة فسحة لمدى متعددة النواحي ، فمن المتعذر الاحاطة بها في محاضرة أو محاضرات . أليست هي رسالة العلم ؟ بل أليست هي رسالة المعرفة ؟ وضع رينان في صدر شبابه رسالة في "مستقبل العلم" استغرقت أربعين وخمسةائة صفحة ، لم تتناول مع ذلك إلا ناحية بذاتها مما يطلب الى العلم أن يقوم به الخير الانسانية . وما وضع من أمثال هذه الرسالة ، والرسائل التي وضعت عن طرائق التفكير ، وعن الادراك الانساني للحياة ، وعن ترتيب العلوم ، وعن المنطق ، تعالج كلها إحدى نواحي التفكير العامي ، تلك ناحية تنظيم الادراك الانساني لحياة العالم كوحدة متماسكة تتخطى حدود الزمان والمكان - وهذه لرسل قد استغرقت ألوف الصفحات وعشرات ألوفها . وهي مع ذلك لا تعالج الا جانباً من جوانب رسالة الجامعة . أمر ذلك شأنه لا يمكن أن تحيط به محاضرة أو محاضرات . وطبيعى ألا يطمع أحدنا اذ يتحدث عن رسالة الجامعة في أكثر من أن يلقى قبساً من الضياء على نطاق ضيق جداً منها ، وكل رجائنا أن تلتقى هذه الاضواء وأن تشق طريقها خلال جماهيرنا المتعلمة وغير المتعلمة ليقدروا هذه المؤسسة الكبرى حق قدرها وليؤمنوا برسالتها وليؤيدوها باعتناق مادعو اليه وبإذاعته في الناس .

ويجمل بي قبل أن أعرض عليكم وجهة نظري في رسالة الجامعة أن أشير الى الفكرة التي قامت بنفوس آبائنا حين فكروا في انشاء هذه الجامعة منذ أكثر من ثلاثين سنة خلت . وضع المرحوم قاسم بك أمين ، وكان أمين سر اللجنة التي تألفت في سنة ١٩٠٦ لإنشاء الجامعة ، بياناً عن أغراض اللجنة من سعيها أشار فيه الى نقص التعليم العالي بمصر في ذلك العهد ، والى ضرورة ايجاد مؤسسة جامعية تنهض في البلاد بأمر الدراسات العليا . وهذا التصوير الاوّل للغرض من انشاء الجامعة قد رسمه لطفى السيد باشا في محاضراته التي عرضت عليكم خلاصتها بالعبارات الآتية :

"إن صورة الجامعة على ما وصفت هي الصورة التي كانت بها الجامعة تتمثل في خواطر الذين أنشأوا الجامعة المصرية منذ أكثر من ثلاثين سنة . كما نتظر أن جامعتنا ستؤلف بيئة

مستقلة فيها يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص ، وأن تحمل عن مصر واجبها في المسؤولية العالمية عن تقدم العلوم والفنون في مدينتنا الحاضرة . بل أنشأ الجامعة القديمة لتعارض بها التعليم العالى في الحكومة الذى كان كل مايراد به هو إيجاد موظفين للإدارة الحكومية لا أكثر ولا أقل .

لعلكم تريدون أن تستبينوا صورة أكثر وضوحا عما كان قائما بنفوس منشى الجامعة الأواين من رسالتها . اذن فاسمحوا لى أن اتلو عليكم فقرات من خطابين أساسيين في نشأة الجامعة . أولها ألقاه المفطور له قاسم أمين بك بمنزل المرحوم حسن زايد باشا بسراره في ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨ . وألقى المفطور له عبد الحلقى ثروت باشا الخطاب ثنائى في حفلة افتتاح الجامعة المصرية بمتدى مجامع شورى القوانين يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ ، وهذه الفقرات كفيلا بالكشف عن هذه الصورة بوضوح وجلاء . ومن هذه الفقرات تتبينون مدى ما حققت الجامعة من هذه الرسالة وما لا تزال مطالبة بتحقيقه منها .

وقف المرحوم حسن زايد باشا نحسين فدانا بالمنوفية خالصة للجامعة فانتقلت اللجنة المؤلفة لإنشائها إلى داره بسراره تقديرا لعمله . وفي الاجتماع الذى عقد هناك ألقى المفطور له قاسم أمين خطابا جديرا بأن يحفظه طلاب الجامعة في مصر على تعاقب الأجيال جاء فيه :

” نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو لالتحاق بوظيفة ، بل نطمح في أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حيا للحقيقة وشوقا إلى اكتشاف المجهول . فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر كما نرى في البلاد الأخرى عالما يحيط بكل العلم الانسانى ، واختصاصيا اتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة ، وكاتباً ذاع صيته في العالم ، وعالماً يرجع إليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمدبرون لحركة تقدمها ، فإذا عدمت أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون “ .

وبعد أن تحدث قاسم عن المتخرجين في المدارس العالية بمصر وأنهم يعملون على مبدأ (ا كسب كثيرا واتعب قليلا) وعن رأيه في الكمال ومن هم أكثر الناس استعدادا له وعن التربية المنزلية وأثرها في التعليم ، وعن حب المصريين العلم من قديم الزمن قال :

” إن لى لأملا عظيما أن يكون إنشاء الجامعة المصرية سببا في ظهور شبيبة هذا الجيل . وما ينيه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التى نلاحظها فيما الآن إلا إيدان مطمئن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطالب ميدانا تنصرف فيه لتتمتع بالتوازن اللازم لصحتها “ .

ذات انحصار الفهم الذي القاه قسم منذ ثلاث وثلاثين سنة يمثل رسالة الجامعة كما
تصورها هؤلاء الآباء الذين نفيوا يوم بيومهم . ولم يكن غرضهم من إنشاء الجامعة تهيئة
النشأة لكسب الرزق وكفى اهل تيميم وتبسة الامة معهم لحياة إنسانية راقية تصبو إلى الخفية
وتتلاقى إلى معرفة شوق وشغف بدنيا منها . وتتصور العالم ونظامه وسننه تصورا علميا
يزيدها سلطانا على القوى الظاهرة والخفية فيه ، ويزيدها لذلك صلة به واستماتة بما يحويه
وذلك جميعا لتعداد قرابة منها ويصبح في مقدورها النهل من ودها .

وله لكن تصوير المفطور له عبد الحاق ثروت بشا لغرض الجامعة دون تصور قاسم
وغيره وسبق . فقد ورد في خطابه بحفلة افتتاح الجامعة ما يأتي :

” حضرت الامة بهذا التربية العمية في مصر لا تزال ترمي إلى أعداد ناشئة تقوم بحاجات
البلاد عمدة وتخرج شبينة يشتغل كل في فنه وصناعته ، وأن البلاد حالية من مهمل علمي
يستقي منه طلاب المزيد من هذا العدر .

” رأيت أن العلماء في البلاد الأخرى يكادون يتفون في كل فرع من فروع العلم بالمعجزات
كما من مبتكرات تتحالفها خلفا بما وجدوا . خبرها من أوروبا وغيرها ونحن نكتفي من
ذلك بحر الرأفة لثمة لثقل . وكم من محترفات مبدعات وآيات بينات فتح الله بها على
أولئك العلماء وحفظنا فيها حظ المتخرج .

” رأيت أنه من الحقص أن أتبع مصر حالة على الأمم بعد أن كانت تغذيها بأمم والورقان
وأن تضل في مثل هذا العصر خيرا من جامعة تصوغ لها طائفة تجمد ذكرها كما كان ذكرها
مخداف ما على الأيام والعصور الحديثة .

” رأيت بكل ذلك وحق لك أن تراه وتدبره . فلا جرم أن قامت قومة واحدة تدعو
إلى إنشاء تلك الجامعة .

هذا السطر الذي رسمه لنا المنشؤون الأبرار لفكرة الجامعة في مصر بين لنا أن الامة
شعبت في ذلك الوقت بأن التعليم فيها قاصر عن أن يمد لها بأسباب الارتقاء الانساني إلى الدرجات
التي يعلمها الأمم المتحضرين . وأن جهدا شعور دفنها لالتماس الوسيلة إلى هذا الارتقاء فوجدتها
في التعليم العلماني على ما هو معروف في تلك الأمم ، لذلك عملت على إنشاء الجامعة تمهيدا
بهاية التي ترتجى ، وحرص على أن يتوض بأصراها علماء يجيرون علمهم ، ويهيون أنفسهم له ،
يكون منهم قضاة في تحوط العلم الانساني ، تصور لنا سنن الحياة وأغراضها تصورا منطوقيا
كاملا ، وإلمم بالأخصائي في علم بذته ، أو في فرع من فروع هذا العلم ، يجنوننا نظرياته
ويكتشف عن جديد فنه ، ويختراع الذي يتخذ العلم وسيلة لتوجيه قوى الحياة وجهات جديدة
والشعر والادب واعنان من أهمهم العلم من صوره الشعر والادب والتفن آيات من جمال

العالم وجلاله. نشأت فكرة الجامعة تمهيدا لهذه الغاية وأملا في أن تنتشر الروح العلمية في تفكير المصري وأن تمتد إلى الشرق كما انتشرت في تفكير الغربي وامتدت إلى سائر أنحاء العالم . وأن يعمل انتشار هذا الروح عمله فيهنس بمصر و بالشرق إلى المكالمة الإنسانية السامية التي تطام إليها هؤلاء الآباء ، ففهمهم وطينتهم تصدقة للصامته إلى الحد للبوغها .

وقد بلغت هذه الفكرة من الداعين إليها مع الإيمان . لما فتحت الجامعة أبوابها وبدأ الناس يؤمنونها قام في وجهها من يناوئها ويحارب جهودها ، ثم كانت قوة الفكرة التي أنشأها وكان إيمان لقائمين بأمرها خير كقبيل بالثغيب على كل عتبة ليجت أو مناوأة ظهرت . في سنة ١٩١١ أذع المغفور له الملك فؤاد الاول . وكان يومئذ صاحب الندوة الأمير أحمد فؤاد باش رئيس الجامعة المصرية . بدء وجهه إلى أبناء وطنه جاء فيه :

"رعم ماصادف مشروعاتنا من اتناويل اباطل وانعت الذي أريد به وضع حجر اعثة في نهضة جامعتنا ! لم يلبث عمنا الخليل المحبوب أن ثبت دء أمه . ولاعرابة في ذلك . فإن العامل القوي الذي يأخذ بناصرنا إنما هو سعينا في خير بلادنا . ولاشك أن نفع شباننا الاعزاء هو فوق كل المقاومات والانتقادات المقصودة ! وأن رعنتنا الشديدة في تحقيق هذا الدفع واخلاصنا في إحياء العلم بمصر يكسبنا القوة للثبات والدأب في هذا العمل . وقد أعرت قلبي في سبيل هذه الغاية حتى يتسنى لأبناء وطني أن يأخذوا حظهم من العلم والعرفن وينصرفوا إلى إحياء نضارة لغتهم وآدابهم وفنونهم العظيمة . ويسهل عليهم تحقيق هذه الأمنية الخلية حينما يستقون عزيتهم وعلمهم من مجد أجدادهم وعلومهم التي كادت تكون في عالم المسيان حينما من الدهر . ولا وسيلة لهم لوقوف على حسهم وتاريخهم وفهم حقوقهم وقيامهم بواجبهم إلا بالرجوع إلى هذه المصادر العزيرة ' وبذلك يعيدون كنوز العلوم العربية القديمة التي نأخذها الآن عن الغرب . وكما أن ضوء النهار بعد الليلة الحانكة الضلام يتجدد بنور فجر كذلك روح النهضة العلمية في مصر بعد ان كانت مستغرقة في سبات عميق حينما في الدهر سيكون لها شأن عظيم في إحياء ذكرى ماضينا الذي كان ولا يزال مقرونا على الدوام بالمجد والعظمة .

و بعد أن أشار رحمه الله إلى ما قامت به الجامعة في السنوات الثلاث التي انقضت منذ افتتاحها حتم هذا البدء عبارات أذكر منها قوله :

"إن جل أمانيه والعاية التي ينبغي الوصول إليها محصورة في أن يعيد إلى الشبان المهريين استتلاهم العقلي وتمهد لهم الوسائل الختوية لرقى مواهبهم .. فأكسب العلم ونمو اندكاه وانتشار الأفكار ليس امتيازًا خاصًا بأمة دون أمة بل هو حق أشعوب على اختلاف أحناسها ومن واجبها أن تتعاون على تأييد السلم وتعمل لإيجاد الألفة بينها وتوحيد المصالح المتبادلة .

ويجب أن نغرس في نفوس طلابنا هذه المبادئ وأن نبرهن على ثبات عريتها، وإخلاصنا في تربية أبنائنا وأمتنا وبعدهم كيف يؤدون الواجب وكيف يتخفون، الأخلاق التي لا ينفع بدونها علم ولا ذكاء . وهذه الطريقة يمكننا رقية آدابنا “ .

حسبي هذه العقرات التي تتوت عليكم من كلام رئيس الجامعة ومُنشئها الأولين ! فقيم من فيص الشعور بالحاجة إلى الجامعة شوقاً للحقيقة وحرصاً على استعادة المجد المتبدد فده أبلاد ما يبرع عن احساسهم القوي الصادق بحاجة بلادهم إلى نهضة قومها، هذه المؤسسة التي أنهت للأمم حيث نهضت ! والتي كانت وستبقى أبداً مصدر الإشعاع القوي لضياء العقل الإنساني ! ولروح الانساني .

إن الحاجة التي أدت إلى إنشاء الجامعة المصرية ، والتي عبر عنها المغفور له الملك فؤاد بالحاجة إلى إعادة الاستقلال العقلي للفكر الإنساني ، هي بعينها الحاجة التي أدت في مختلف العصور إلى إنشاء الجامعات في أوروبا وفي غير أوروبا ، وهي بعينها الحاجة التي أدت في الأزمان السابقة إلى قيام المصاحبين والفلاسفة لتعظيم الجود العقلي ، وموت الفكر الإنساني من القيود التي فرضها عليه التعلق بالاجلة ، والخضوع لأحكام الحياة المسادية ، والاذعان في سبيل هذه الحياة لسلطان البطش . والاستسلام لما يفرضه الأقوياء من هذه القيود ، واعتبارها حقائق ثابتة يؤمن بها الناس كما أنها بمصر سنن لكون التي لا سبيل إلى تحويرها .

ونحن إذ نرجع إلى دعوة الأنبياء ورسالة الرسل نجدنا قائمة على استقلال العقل الإنساني وتحرير الفكر من أسار هذه القبود وأكتفى في هذا المقام بالإشارة إلى الدعوة الإسلامية ، فقد دعا محمد قومه ليذبوا ما وجدوا عليه آباءهم ، ولينظروا إلى الكون فيستبينوا سنه حتى يؤموا بالله . وهذا لايمان لا يكون إيماناً حقيقياً ما لم يهدنا إليه العقل المستقل والذكر الحر . يقول المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ” إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمناً الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل واو صالحاً بغير فقه فهو غير مؤمن . فليس المقصد من الإيمان أن يذال الانسان بخير كما يذال الحيوان ، بل المقصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير الابع المرضي لله . ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته “ .

والحاجة إلى استقلال العقل وتحرير الفكر تتور في أمم بدافع طبيعي مصدره سنة الاحتفاظ بالحياة الانسانية . ذلك بأن الحياة والحركة مقرنتان ، كما ان الموت والسكون متلازمان ، ليس في الحياة حتى لا يتحرك ، يستوى في ذلك الجماد والنبات والحيوان . ذرات الجماد في حركة متصلة ، وحركة الحياة في النبات وفي الحيوان تشهدنا أعيننا ، وعن حركة الاندالك . العوالم نشأ لليل والنهار والظلمة والنور ، وينشأ توازن الكون كله ، فلو أن هذه الحركة وقفت

هنية لداعى الكون وإنهد كيانه . وحركة العقل هى المظهر الأساسى للحياة الإنسانية . فإذا قيد العقل عن الحركة وحيل بينه وبين التفكير الخرسات الحية الإنسانية فتأخرت الجماعات التى تصاب بهذا الشلل ونحمت حركتها الذاتية ، فتولى شؤونها غيرها وفرض عليها ألوان حياتها واستأثر هو من هذه الحية بخير الثمرات . عند ذلك تنور السانية لامم فتشعر بالحاجة الى استقلال العقل وحرية الفكر ينفض بهما الانبياء والمرشدون . والفلاسفة والمصلحون ، وتنفض بهما الجماعات التى تتولى حماية هؤلاء الفلاسفة وغيرهم من اضطهاد البطش وفك الصغيان .

والحاجة الى استقلال العقل وحرية التفكير ليست شهوة تنطفئ متى تحققت ثم تتجدد بتجدد الدافع لها ، وإنما هى ضرورة جوهرية لحياة الأمم قائمة على وجه الدوام بتعباء عرض لا يابث الناس إذ يظنون أنهم اقتربوا منه أن يروه فز من أيديهم وبعد عنهم ، ثم ظل مع ذلك يترامى لهم فى بهاء جلاله وساطع ضيائه . هذا الغرض هو الحق ، وهو الكمال . والناس الحق والكمال ذو مثل الانسانية ، لأعلى فى الحياة . أيهما تنوق كل نفس مهذبة ، وكل أمة بلغت من مدارج الرقى الانسانى مقامها محمود . لكن الجهود التى بذلت منذ أرف السنين لمعرفة الحق ولبلوغ الكمال لما تنوج بالإنجاح ، وإن أدركت الانسانية من سعيا اليهما حفا غير قليل . كشفت من أسرار الوجود وسننه عن كبير كان يظن غيبا لا سبيل إلى رفع حجبه ، وأدركت أن العيب لا يزال يطوى أصعاف أصعاف ما كشفت عنه ، فهى شديدة التوق إلى معرفته . دائمة الدأب للكشف عن أسراره ومعرفة سننه . والعقل المستقل والفكر الحرهما الاداة لا أداة غيرها لبلوغ ما يستطيع بلوغه من هذا الغرض .

وقد اتصل سعى الانسانية منذ أقدم العصور بتصوير الطريقة التى تكفل استقلال العقل وحرية الفكر ابتغاء الوصول إلى الحقيقة وإلى الكمال . كما اتصل سعيها بتصوير هذه الحقيقة التى تنوق كلنا معرفتها ويبدل العلماء والمؤدوبون حياتهم المشر نورها . أفيستطيع العقل ، بوسائل المعرفة الميسورة للإنسان ، أن يصل إلى معرفة أسباب الوجود الأولى وغاياته لأخرى . أم أن مالدينا من أسباب المعرفة يقصر دون الأسباب والغايات ، وإن استطاع أن يستكشف من طريق معرفة الواقع سنن الكون ونظامه . وقد حتمت معركة الجدل حول الطريقة المثلى لمعرفة الحقيقة عمورا طويلة . ثم ظن الناس فى القرن الماضى أن المعركة انتهت إلى غاية حين تغلب التفكير الواقعى على ما سواه ، وحين أقر العلماء والفلاسفة فى بلاد أوروبا المختلفة بتفوق نظريات أوجست كمت ، وبصدق قانونه عن حالات العقل الانسانى الثلاث : الحال النيواوجية ، والحال المتافيزيقية ، والحال النووقية . لكن نظريات جديدة قامت فى هذا القرن العشرين كانت برحسون واينشتين بعض دعائها ، وكان صرماها أن الطريقة العلمية المحدودة بمحدود الواقع تقصر دون الحقيقة التى يتطلع الكل إلى صيائها ، وأنا يجب أن نستوى للإلهام الانسانى لإدراك هذه الحقيقة ، كما يجب أن تقدر السببية

في معارفنا وأن نحسب لها حسابها في كل علومنا ومباحثنا . وبذلك عادت معركة الجدل
على طريقته إلى احتدمها من جديد .

وطلب الشك في معركة الجدل هذه من كان قصدهم إلى تعطيل العقل واستقلاله ،
وتمكروحريته ، ليس لهم أن يتحكوا في أقدر الناس ومصائرهم . وما أعظم الجهود التي
بذلت دعة الحرية الانسانية لنقضاء على تلك المآرب . وليس يسع كل محب للحقيقة إلا أن
يعتبط حين يعلم أن كل جهد بذل للحد من استقلال العقل ومن حرية الفكر كانت نهايته
المثل ، وأن لصر ندى أحرزد دعة الحرية هو الذي تباح للإنسانية أن تتقدم نحو الحق
والكمال خطوات سريعة واسعة .

كئن هذا لصر كذلك أن تحل معركة الجدل حول الطريقة متجهة إلى الغرض منها .
ولم توجه هذا الغرض يوما إلى الحد من استقلال العقل ، بل إلى تنظيم هذا الاستقلال تنظيمًا
يكفل للمفكر حرًا أن يطلع على أعلى من الحياة الانسانية ، وذلك بتصوير احقيقة التصوير
العلمي الصحيح . وكانت الطريقة الواقعية هي التي كتبت هنا للفوز في القرن الماضي كما سبق
لتكون . ولا يسر أحد أن هذه الطريقة الواقعية قد هدتنا إلى كثير من سنن الكون ونظامه
تدبيرت للعلماء ، وبإتساع من أسباب الكشف عن كثير مما كان محجوبًا بحجب الغيب ،
وأه بذلك قد جعلت الأساس أعظم سلطانًا على قوى الذم الظاهرة والخبئية . ثم إنها إذ وجهت
الناحيتين إلى التفتيش في ماضي الانسانية وحاضرهما ، وفي ماضي العالم وحضره لإثبات السنن
الكونية اثباتًا علميًا يسمى عنها كل رتبة ، وإقامة الصلة بين الناس أفرادًا وجماعات وبين
الانسانية وعوالم الكون المختلفة على أساس من هذه السنن المقطوع بثبوتها — قد أتاحت
لتفلسفة أن يتيموا المذاهب الفلسفية الواقعية المعتمدة على ما كشفت عنه العلوم كلها .
وعدة هذه المذاهب أن تقر بنا في معروف الحياة من الحقيقة وأن تدنيننا من الكمال .

كانت الجماعات في قيامها برسالتها خلال العصور الأخيرة أكبر الفضل في إحرز
ذلك النصر . فقد نشأت الجامعات أول ما نشأت معاهد تمنح المتقدمين إليها بأمر
الحاكم حياة ، وخلال ماضيها حياة أخرى ، درجات تميز لهم التقييم على الناس . ثم
صارت هذه ناهي ملاحق للعلماء تسمى مصالحهم وحرمتهم وتجهيمهم من بض ذوى النطش
بهم ، وتيسر لهم أساس البحث بتدء الحقيقة وحرصا على بلوغ الكمال ، وكان دأبها في جميع
العصور أن تضع النظريات التي يندى بها العلماء من رجالها ومن غير رجالها ، موضع
التحجيص والتقد ، تقر منها ما تراه متفقًا مع طرائق البحث المقررة لديها ، وتتكر ما لا يتفق
مع هذه الطرائق . ثم لا ترى بأسًا أن تجعل طرائق البحث نفسها موضع النقد والتحجيص
من جديد .

وإنما استطاعت الجامعات أن تكشف عن الحقائق وأن تحمصها بانقطاع رجالاتها للبحث
انقطاع الرهبان للمادة — على حد تعبير الأستاذ الكبير مدير هذه الجامعة . وعلماؤنا الجامعات
أقدر من غيرهم على التخصيص والتدليل البينة العلمية تجعل وسائل أبحاث كلها في متناول
أيديهم . فالمكتبات ، والمعامل ، ومهياها ، تجعل آخر الأبحاث في جميع العلوم حاضرا
في كل وقت لدى من شاء منهم أن يقوم بتجميعه وإتقده ، وهذه البينة ، وهذا "انقطاع" لتعلم
والتخصص فيه . يتدحرج لرجل الجامعة تصوير الحقيقة في عصره تصويرا يدينها من اهتمام
المثقفين ، ويكفل لها أن تنشر في الناس وأن توجه لمصير جماعات .

ونشر الحقيقة في الناس يتوجه ساوكمهم في الحياة أفرادا وجماعات يتصل برسالة الجامعة
بل هو جوهر هذه الرسالة . فالعلماء لا يبحثون عن الحقيقة لذاتها ، وإنما كان هذا المتاع
عظيما لذاته حتى لا يقاس به مناع سواه ، وإنما يريدون الحقيقة لخير الانسانية إيماننا منهم بأن
الحقيقة وحدها هي التي تدعى لانسانية من أسعادة ، ومن انخير ، ومن تكامل .

وكل حقيقة اهتدى اليها قد كان لها في تقدم الانسانية من الآثار ما لبقت
الإشارة اليه . لكن هذه الحقيقة مجردة قائمة بذاتها كالحقائق الرياضية ، أو متعلقة بها لم غير
هذا العلم الذي نعيش فيه كالحقائق الفلكية ، أو غير الانسان مما في هذا العالم كالجناد
والنبات والحيوان — فكل ما كشف منه البحث العلمي في هذه الشؤون وفي شأن الانسان
قد نقل الانسانية خطوات ارتقت بها ثم كان انتشاره في الناس مدعاة شعورهم بقيمتهم
الانسانية شعورا يزداد سموا كلما ردادت الحقائق التي تقف عليها وضوحا وثبوتا .

وإنما استطاعت الجامعات نشر الحقائق التي اطمانت اليها في الناس بعد أن ذاع فيهم
الإيمان باستقلال العقل وحرية الفكر ، وبعد أن أدركوا أن التعصب والعلم لا سبيل إلى
انفاقهما . وأن العقل الخالد الذي يأتي البظرف فيما وجد عليه آباءه عدو للعلم بطبعه يزور من
صور الحقيقة عن كل ما لم يألوه ، وينظر بعين البغضاء والحقد إلى كل من يخالفه .

وقد يرجع الفضل الأول في إذاعة الاستقلال العقلي بين الناس إلى تفكير الرياضيين
والاطباء وغيرهم من المشتغلين بعوم الحياة في طرائق البحث أيها أمثل لأدراك الحقائق التي
تناولها هذه العلوم ، وبخاصة حينما طوعت هذه الطرائق للعلم أن يسقط سلطانها على كثير
مما في الكون بعد أن وقف على سننه وعرف القوى المختلفة فيه . هنالك انفسح المجال أمام
العلماء في الجامعات ، وأمام تلاميذهم الذين يعلمون الناس في مختلف المعاهد إذاعة الحقائق
ولإقامة المذاهب وللدعوة والسعي لتنظيم الحياة على أسسها .

وهنا تشعبت المذاهب وتمايزت المساجح في بلاد مختلفة باختلاف طبيعتها ، فإذا الطريقة
الواحدة تؤدي في إنجلترا إلى مذاهب غير التي أدت اليها في فرنسا أو في ألمانيا أو في أمريكا

وإذا الثقافة الجنسية أو القومية يطبعها طابع يستمد كيانه من وجودها الخاص ، وإذا الجامعات تعتر بهذا الطابع وتعمل على تلمذه ، مع دأبها على أن يجعل من ثقافات الأخرى موضع عنايتها وبحمها ، رجاء التوفيق ينمها للأصحة العالوية العامة .

هذه ، أيها السادة هي الرسالة العظمى التي قامت بها الجامعات في البلاد المختلفة ، وهي بينها ما أورد المنشون الأولون للجامعة المصرية من الشائها ، فإذا حققت هذه الجامعة من رسالة العلم ، ومن إعادة الاستقلال العقلي والتفكير الحر لشبابنا . وماذا قامت به من واجب مصر العالوية لشاركة في رقي المعارف الانسانية . ثم ماذا طبعت به ثقافتنا من طابع خاص يميزها عما سواها ؟ .

ختم الاستاذ مدير الجامعة محاضراته التي لخصتها لخصراتكم في صدر كلامي بصارة قيمة جاء في صدرها ، "جاءتنا حديثة العهد الى حد أنها لم يتم بعد بناؤها . ولم ينشأ بعد حتى لطلتها ، ولم تستوف بعد أساتذتها من المصريين ، وان كانت لا تستغنى أبدا عن الاساتذة الزائرين . ولما تطمئن الى استقرار التقاليد الجامعية - فضاليتها بتحقيق رسالتها ينبغي أن تكون متناسبة مع حدانها ومع حافظها ووسائلها" .

وهذا تصوير للواقع صوره خير من يعرفه . على أننا نيب مع ذلك أن نشهد بحسامه المجهود الذي تم خلال السنوات التي انقضت منذ انشاء الجامعة في سنة ١٩٠٦ ومنذ أن صحت للحكومة في سنة ١٩٢٥ وما قامت الحكومة به من انشاء مباني الجامعة ومستشفى فؤاد الاول بعض هذا المجهود الضخم الذي استغفد ثبات الاوف من الخبيرات . والذي أفهم هذا المعبد العالوي الجليل وهياه بكل الاسباب التي تيسر للجامعة تحقيق غرضها . وهذه المنشآت قد تمت كلها خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة . وفي هذه الاثناء كانت الدراسات انعمية في معاهد هذا المعبد تتقدم تقدما مطردا . ولست أريد أن أدلل على ذلك بنتائج عملها في المرحلة الجامعية الأولى ، مرحلة البكالوريوس أو الدكتوروس . فإندارس العليا تمنح مثل هذه الاجازات . ونما أدكر نتائج دراسات العليا في الكليات الأربعة التي تألفت منها الجامعة أول عهدنا : كليات الطب - والعلوم - والآداب ، والحقوق . فقد أجازت هذه الكليات اثنين وسبعين دكتورا ، ومائة واثنين أستاذا (ماجستير) حلا دبلومات المعاهد الخاصة وتبلغ ٥١٩ دبلوما .

قد لا يكون هذا العدد كبيرا بآقياس الى عدد السنين التي انقضت منذ انشاء الجامعة ، أو منذ صحتها الى الحكومة . وقد يبدو كذلك بنوع خاص عدم مقارنته بمثله مما حصل عليه بناؤنا في جامعات أوروبا المختلفة . فأعضاء بعثات الحكومة وحدهم قد حصل مائة وستة وأربعون منهم على إجازة الدكتوراه . وسبعة وأربعون على إجازة الاستاذية وثمانية عشر على الزمالة .

ولعل من حصلوا على مثل هذه لدرجات العلمية العليا ممن تعلموا على نفقتهم في أوربا لا يتلون عددا عن أعضاء البعثات . لكن مع ذلك يجب أن نذكر أن جامعتنا لم تمنح الاجازات العلمية العليا في السنوات الاولى لنشأتها ولا لصمها للحكومة . لان هذه الاقسام العليا انما أنشئت شيئا فشيئا بعد استكمال الجامعة وجودها العام في سنة ١٩٢٥ . ولم تمنح وحدة من الكليات الاربع أية إجازة للدكتوراه الى سنة ١٩٣٠ وفي تلك السنة منحت كلية الطب وحدها هذه الإجازة لأربعة من أبنائها ، وفي سنة ١٩٣١ منحت هذه الإجازة لاثنتين في كلية الطب ولو احد في كلية الحقوق . وفي سنة ١٩٣٣ منحت كلية العلوم أول إجازة للدكتوراه فيها . وأما أول إجازة للدكتوراه في كلية الآداب فلم تمنح إلا سنة ١٩٣٧ ولا يزال عدد هذه الإجازات العليا قليلا ، قلما زاد في العام على ثلاث أو أربع . اللهم إلا استثناء إذ منحت كلية الحقوق ست إجازات للدكتوراه في سنة ١٩٣٨ ومنحت كلية العلوم عشر إجازات للدكتوراه في العام الماضي .

ولم يقف الأثر المترتب عن حداثة الجامعة عند هذا الحد في أمر الدراسات العليا . فقد استعرضت عناوين الرسائل التي قدّمت لإجازة الدكتوراه في الكليات المختلفة لمصر وقارنتها بعناوين الرسائل التي وضعها المصريون الذين حصلوا على الدكتوراه من جامعة أوربا . فاسترقفتي من هذا الاستعراض فتحام طائفة من الرسائل التي قدّمت للجامعات لأوربية للذاهب العامة في العلوم المختصة واقتصاراً كثر الرسائل التي قدّمت إلى جامعتنا على بحوث تفصيلية ، دقيقة لا ريب ، في مسألة بذتها . ومرجع ذلك إلى أن البيئة الجامعية الأوربية قد بلغت من الاستقلال بذتها أن أقامت صرحاً من النظريات والمداهب المختلفة في شتى الفنون والعلوم ، أما بيئتنا الجامعية فلا تزال بحكم حداثة عهدنا وبمجم المستوى العقلي العام المتأثر بما صيدنا المدرسي ، بحاجة إلى أن نقيم بناءها الذاتي . وأن نقيم على أساسه مثل هذا الصرح العظيم من النظريات والمداهب ، ليستطيع أبنائنا اقتحام هذه المداهب والنظريات . ينقدونها أو يعقلونها أو يؤيدونها بما يتفق مع تصورهم للحق وسأيدني الحق من الكمال .

لسنا نطمع ، وهذه حالنا ، في مطالبة أبنائنا أو مطالبة علماءنا ، أن يبدعوا حديثاً في طرائق البحث العلمي . فهذه الطرائق ، بطبيعتها ، هي ثمرة التطور العلمي ، ومثال العقل لمجموع هذا التطور في مختلف العلوم ، وعدم اطمئناننا إلى كفاية طريقة المفترزة لبلوغ الغاية من الحقيقة ، أو وقوف هذه الطريقة في سبيل تلك الغاية . ولا شك في أنا نريد أن تبلغ جامعتنا هذا المنهج . لكننا لا نزال بحاجة إلى تطبيق الطرائق التي سبقنا للجامعات الأخرى إليها حتى نستنفذ هذه الطرائق في ميادين العلم والامن المجتمعة . ويومئذ ينفسح المجال أمام العالم الممتاز ، والمفكر الممتاز ، ليبدع في طريقة البحث العلمي حديثاً .

السادة

أشرت إلى أن من جوهر رسالة الجامعة نشر التفكير الجامعي وإذاعته في الناس .
 وبيئة الجامعة المشتعبة بالدراسات العليا لا يمكن أن تكون بذاتها أداة هذا النشر ، فلا بد
 من وسائل تنسب إليها وبين التفكير العام . ومن هذه الوسائل طرق النشر العام بالكتب
 والمحلات ولصحف وإذاعة . لكن الوسيلة الناجعة التي تمهد لنجاح هذه الوسائل جميعها
 هي التعليم . لذلك كان من أهم ما اقترحه الخبيران العالميان اللذان استقدمتهما الحكومة
 المصرية عام ١٩٣٨ بحث وسائل التربية والتعليم في مصر - وهما المسترمان والمسيو
 كلابريد - إنشاء معهد التربية العالي وتغذيته بحريجي الجامعة ، وجعل إجازاته وحدها
 المؤهل لصرفى لتولى شؤون التعليم في المدارس . وتلك هي الوسيلة المتبعة في جميع الأمم
 لإتمام الدورة العلمية الجامعة في مختلف أجيال الأمة من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم
 إلى الكهولة واشجوحه في البيئة الجامعية نفسها . وقد أنشئ هذا المعهد بالفعل منذ
 سنة ١٩٣١ ، من أنى أسف إذ أقول إن المتخرجين فيه قصر عددهم ولا يزال قادرا عن
 أن يمد المدارس في ورية المعارف وحدها بمحاجاتها الملحة للمدرسين ، وأنها كثيرا ما تضطر
 إلى تعيين مدرسين في مواد كثيرة لا يخرجوا في المعهد ، وأن دورة التفكير الجامعي لا تزال
 لذلك متقطعة . من ثم لا تزال المدارس المصرية تجمع ألوانا متباينة من عقليات شتى يشمر
 يتأتمون على التعليم بما يتلائمها من أترق تكوين ناشئنا من ناحية تربيتهم ومن ناحية ثقافتهم
 العلمية ، ومن ناحية تعليمهم .

السادة :

هذه وجود من التخص نصح كلنا في تلافيا . ويجمل للحق إن حدائة عهدنا
 بالجامعة ليست وحدها السبب في هذه الوجوه . فقد افسحت ميادين حياتنا القومية
 في ربيع الثمن الأخير ، فلم يكن يد من أن ينهض شبابنا المتعلمون في أوروبا وفي مصر بالتبعات
 الحسام التي تربيت عن هذا التطور السريع ، ومن هؤلاء الشبان من أوفدتهم الجامعة منذ
 عشرين أو ثلاثين سنة إلى أوروبا والتأهين برسالتها . ومنهم من تخرجوا في هذه الجامعة وكانت
 ترحوبهم للعرض نسه .

بإطراد هذه النهضة ، وتوشب البلاد جميعا إلى مكان المحيد الواجب لنا بين الأمم ،
 واطبق الأمم العربية والأمم الشرقية إلى مصر ، واعتبارهم إياها الشقيقة الكبرى ولرأس
 التفكير بما يجب حد الجانب المسيح من العالم في العصر الحاضر - هذا كله قد جعلنا أكثر
 احتياجا إلى الشدن لتعلمين ، وأكثر من ثم احتياجا إلى فتح أبواب الدراسات العليا في التعليم
 الجامعي أعداد أكبر من العدد الذي يشتغل بها في الوقت الحاضر .

أما وذلك حالنا ، وأتت حاجتنا ، فما أحرانا بأن نقضاعف الجهد في معاونة الجامعة على النهوض برسالتها كاملة في إعادة الاستقلال العقلي لشبابنا . وفي الكشف عن الحقائق العلمية وفي إذاعة هذه الحقائق بين الناس .

وصور المعاونة الواجبة للتعليم الجامعي كثيرة جديرة بالتفكير في أيها أخرى بالتقديم . وأقول ما يجب علينا أن نمدد جامعاتنا ليكفّل تنافسنا في شتى ميادين العلم دقة إدراكنا للحقائق ، وليكون هذا التنافس لذته سببا في ذبوع الحقائق العلمية وانتشارها وعناية الناس بها . وإذا ذكرنا أن في اليابان اليوم عشرين جامعة يدفع تنافسها نهضة اليابان إلى الأمام دعه قويا سريعا أيقنا أن إنشاء جامعات عدة في بلادنا فيه من الخير للعلم وللحقيقة ولحذا الوطن ما لا يجوز الإغضاء أو التغافل عنه .

ومن وجوه المعاونة تقرير مبدأ يقضى استقلال الجامعة بتقريره . ذلك مبدأ عدم قابلية استئثارها للعزل أو اللقفل على النحو المقرر عندنا لرجال القضاء الأعلى ، فتقرير هذا المبدأ يكفل استقلال الأساتذة من الناحية العلمية ، ويجب أن يكفل بقاءهم بالسلك الجامعي للنهوض بالعلم وبرسالة الجامعة .

وثمة ألوان شتى من المعاونة على نهوض الجامعة برسالتها جديرة بأن تكون موضع درس خاص . ولعل رجال الجامعة لا يرضون علينا بمحاضرات فيها . فإذا تحققت أزالنا عما لا يزال قائما بنفوسنا من التردد العقلي ، وجعل الجرأة العلمية في طبيعة شبابنا ، وفتحت أمامنا من أبواب التقدم ما طمع منشئو الجامعة فيه ، وما لا نزل نطمح نحن في إدراكه .

أيها السادة :

أطلت في القول . وإنما دعاني إلى هذه الإطالة إيماني بجلال رسالة الجامعة ، وبأن اضطلاعنا بعبء هذه الرسالة ، حرصا على معرفة الحق وإذاعته في وطننا ، هو الذي يدنيننا من المكانة الواجبة لنا . فلمصر ماض مجيد طويل أضاعت العالم خلاله بتور العلم . والعالم أشد ما يكون اليوم احتياجا إلى هذا النور يتقده مما تورط فيه . وجامعات هي التي تذكى هذا النور وتضيء به جوانب العالم المظلمة . فأطمع في أن نهض بجامعتنا لتحقيق هذا الحلم العظيم ، إنني أعظم الرجاء ، وعلمائونا ، وشبابنا لأذكياء ، قادرين بذكائهم ، وبصبرهم ، وباخلاصهم للحقيقة ، على أن يحملوا هذه الأمانة ، وأن ينهضوا بهذه الرسالة ، وأن يبيدوا لوطننا العزيز ، وللشرق كله ، مجدا طامحا توج سواه هام أجدادنا ، وما أجدره أن يتوج هام أبنائنا وحفدتنا .